مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 22 العدد02 2026/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أنثروبولوجيا الطقس والسيادة: المولد النبوي الشريف في تلمسان الزيانية بين قداسة الرمز وإعادة إنتاج السلطة

The Anthropology of Ritual and Sovereignty: the Noble Mawlid in Zayyanid Tlemcen Between Sacred Symbolism and the Reproduction of Authority

بلعربي خالد *

[1]جامعة الجيلالي ليابس–سيدي بلعباس (الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية)

belarbi.tlemcen@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2026/ 02/24 تاريخ القبول: 2026/05/26

ملخص:

يتطرق هذا البحث التطرق إلى الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب الأوسط الزياني من شعيرة دينية إلى "استراتيجية سيادية" متكاملة، بلغت ذروتها مع السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي وظف المناسبة لإعادة بناء شرعية الدولة وتثبيت هويتها في مواجهة الخصوم الإقليميين،تجلت "سياقات التوظيف" في تحويل قصر المشور إلى منصة للبيعة السياسية وحشد الولاءات، بينما عكست "دلالات الممارسة" رقياً حضارياً فريداً، تمثل في ابتكار "المنجانة" (الساعة المائية) كرمز للتفوق التقني، ونظم "الموالديات" كخطاب أدبي يمزج بين المدح النبوي والتمجيد السلطاني، واجتماعياً، نجح المولد في إذابة الفوارق الطبقية عبر الموائد العامة، مكرساً تلمسان كمركز إشعاع ثقافي نافس كبريات الحواضر، إن هذا الاحتفاء لم يكن مجرد بذخٍ مراسمي، بل كان "درعاً هوياتياً" صان الشخصية العربية الإسلامية للمنطقة ضد التأثيرات الخارجية، ليظل المولد الزياني نموذجاً فذاً للتقاطع بين هيبة السلطة وقداسة الرمز.

الكلمات الدالة: المغرب الأوسط.، العهد الزياني.، المولد النبوي.، الاحتفال.، تلمسان.

Abstract:

This research examines the transformation of the Prophet’s Mawlid celebration in the Zayyanid Central Maghreb from a mere religious ritual into an integrated

* المؤلف المرسل

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

"Sovereign Strategy." This phenomenon reached its zenith under Sultan Abu Hammu Musa II, who utilized the occasion to reconstruct the state's legitimacy and solidify its identity amidst intense regional rivalries. The "Contexts of Appropriation" were evident in transforming the Mechouar Palace into a platform for political allegiance and the mobilization of loyalties. Meanwhile, the "Meanings of Practice" reflected a unique cultural sophistication, exemplified by the invention of the "Manjana" (the hydraulic clock) as a symbol of technical excellence, and the composition of "Mawlidiyyat" as a literary discourse blending prophetic praise with royal glorification. Socially, the Mawlid succeeded in dissolving class distinctions through public banquets, establishing Tlemcen as a cultural beacon rivaling major metropolises. Ultimately, this celebration was not merely ceremonial extravagance; rather, it served as an "Identity Shield" that preserved the region's Arab-Islamic character against external influences. Thus, the Zayyanid Mawlid remains a distinctive model of the intersection between the prestige of authority and the sanctity of the symbol.

Keywords: Central Maghreb; Zayyanid Era; Prophet’s Mawlid; Celebration; Tlemcen.

مقدمة:

يعد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633-962هـ / 1235-1554م) ظاهرة حضارية فريدة، تجاوزت في جوهرها الأبعاد التعبدية المحضة لتتحول إلى "مؤسسة سيادية" قائمة بذاتها، لقد اقترنت هذه الذكرى في تلمسان الزيانية بمراسم سلطانية باذخة، تماهى فيها إلقاء "المولديات" الشعرية بحلقات الذكر وصنائع الكرم الحاتمي، في مشهدٍ لم يكن بمعزل عن التجاذبات الإقليمية، بل كان تعبيراً حيوياً عن الهوية الثقافية والسياسية للدولة الزيانية في مواجهة طموحات القوى المعاصرة لها من مرينيين وحفصيين.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إن هذا الاحتفاء بما يحمله من رمزية، بات يتبوأ مكانة مركزية في تاريخ الحساسية الدينية والسياسية للمنطقة، كونه لم يعد مجرد استذكار لحدث تاريخي، بل غدا ظاهرة شمولية تعكس عبقرية المكان والزمان في الحاضرة التلمسانية.

وفي هذا السياق يندرج موضوع بحثنا الموسوم بـ: " أنثروبولوجيا الطقس والسيادة: المولد النبوي الشريف في تلمسان الزيانية بين قداسة الرمز وإعادة إنتاج السلطة"، وهو الطرح الذي نبتغي من خلاله سبر أغوار العلاقة الجدلية الشائكة بين السلطة والمقدس، إذ يسعى البحث إلى تجاوز القراءات الوصفية السطحية للمراسم، ليعمق النظر في "سياقات التوظيف" التي جعلت من المولد أداة لتعزيز الشرعية السياسية وإدارة الصراع الرمزي، فضلاً عن تحليل "دلالات الممارسة" عبر استنطاق الطقوس الاجتماعية والمنجزات الأدبية التي صاغت الوجدان الروحي والهوياتي للمغرب الأوسط في العهد الزياني.

تكمن **أهمية هذا البحث** في كونه يطرق باباً حيوياً في تاريخ المغرب الأوسط، تتجلى قيمته في محاولة إعادة الاعتبار للمغرب الأوسط كمركز حضاري، من خلال تسليط الضوء على تلمسان ليس فقط كقلعة عسكرية، بل كحاضرة ثقافية استطاعت ابتكار طقوس وأدبيات (المولديات) أثرت في المحيط المغاربي والأندلسي، مما يعيد صياغة المركزية الثقافية للمنطقة، ثم ابراز أهمية المولد كجسر تواصل، حيث يلتقي السلطان بالرعية، والفقيه بالصوفي، مما يسمح لنا بفهم بنية مجتمع المغرب الأوسط في العصر الوسيط وكيفية انسجامه تحت لواء الهوية الدينية الموحدة.

تتمحور **إشكالية البحث** حول التساؤل الجوهري التالي:

"كيف استطاعت الدولة الزيانية تحويل ذكرى المولد النبوي من مجرد ممارسة تعبدية وفطرية إلى 'استراتيجية سيادية' ومؤسسة قائمة بذاتها، وما هي آليات توظيف هذا المقدّس في بناء الشرعية السياسية وصناعة الهوية الحضارية للمغرب الأوسط؟

تضافرت مجموعة من **الدوافع العلمية والذاتية** التي جعلت من دراسة هذا الموضوع ضرورة بحثية، وأبرزها:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

-القيمة الاستراتيجية للمغرب الأوسط: الرغبة في إبراز الدور الحضاري للجزائر (المغرب الأوسط) خلال العهد الزياني، وتفنيد الأطروحات التي تحصر التميز الثقافي في مراكز الخلافة التقليدية فقط.

-الرغبة في تفكيك "سوسيولوجيا السلطة": محاولة فهم كيفية توظيف الشعائر الدينية كأداة ناعمة لتثبيت الشرعية السياسية، وهو جانب لا يزال يحتاج إلى المزيد من القراءات التحليلية المعمقة.

-الخصوصية التلمسانية: فرادة النموذج الزياني في الاحتفال، والذي مزج بين الصرامة الفقهية والروحانية الصوفية والترف الأندلسي، مما أنتج إرثاً (خاصة الموالديات) يستحق الوقوف عنده بالدراسة.

يسعى هذا البحث من خلال مقاربته التحليلية إلى تحقيق جملة من المقاصد:

-تأصيل الظاهرة تاريخياً عن طريق رصد جذور وبدايات ترسيم الاحتفال بالمولد في بلاد المغرب الأوسط وكيفية تطورها لتصبح تقليداً رسمياً للدولة.

-استجلاء دلالات التوظيف بالكشف عن الأبعاد السياسية الكامنة وراء الاحتفاء بالمولد النبوي الشريف،

-رسم ملامح الهويةمن خلال مساهمة هذه الممارسات في صياغة الشخصية الحضارية للمغرب الأوسط وتكريس استقلاليته الثقافية والسياسية.

أولا: النشأة والتطور التاريخي لظاهرة الاحتفاء بالمولد النبوي: من التأسيس المشرقي إلى الترسيم المغربي:

لم يكن ميلاد فكرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف مجرد استذكار روحي عفوي، بل كان تحولاً مفصلياً في تاريخ "المقدس السياسي". فمنذ أن أرسى المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ) دعائم هذا الاحتفال في مصر، لم يكن الهدف تعبدياً فحسب، بل كان "استمالةً عاطفية" لقلوب المصريين وصناعةً لهوية شيعية تحت عباءة محبة آل البيت. لقد أدرك الفاطميون باكرًا أن العطايا والولائم والمواكب العسكرية ليست مجرد كرم حاتمي، بل هي "استعراض لشرعية الدولة" وقدرتها على رعاية المقدسات، وهو ما أسس لنمط "الاحتفالات السلطانية" التي ستمتد لاحقاً إلى دول الغرب الإسلامي (حسن السندوبي، 2011، ص65) ومع انكسار المد الفاطمي وانتقال الزخم إلى الدولة الأيوبية، وتحديداً في أربيل مع الملك المعظم مظفر الدين

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

كوكبري، شهد تحول المولد إلى "ظاهرة سنّية شاملة"في هذه المرحلة، لم يعد المولد طقساً سلالياً منغلقاً، بل استحال إلى عطلة رسمية وموسم اجتماعي واقتصادي شامل، حيث أصبح الاحتفال بالمولد النبوي في إطار سني وجعل منه ممارسة إنسانية واجتماعية كبرى ، مما مهد الطريق لانتقال هذه الظاهرة إلى بلاد المغرب والأندلس عبر بوابة "بني العزفي" في سبتة خلال القرن السادس الهجري(12م) ، لقد كانت دعوة أبي العباس العزفي للاحتفال في المغرب بمثابة "مقاومة ثقافية" واعية، تهدف إلى تحصين المسلمين ضد "الاستلاب الحضاري" والتأثيرات المتزايدة للأعياد المسيحية التي بدأت تستهوي العامة في الأندلس والمغرب، مما أعطى المولد صبغة "الدفاع عن الهوية" والتميز عن "الآخر" الديني.(صابرة خطيف،2011 ،ص230).

أما في المغرب الأقصى، فقد اتخذ الاحتفال منحىً أكثر صرامة ومؤسساتية مع بني مرين، فلم يكتفِ السلطان أبو الحسن المريني بالترسيم، بل جعل الحضور فعلاً سياسياً يُعاقب المتخلف عنه بقطع الأرزاق (المرتبات)، هذا "الالزام السلطاني" يشير إلى أن المولد تحول إلى "بيعة سنوية" واختبار للولاء؛ حيث يجتمع القضاة والفقهاء والأشراف في بلاط السلطان، مما جعل من المناسبة أداةً لضبط النخبة وإظهار هيبة الدولة. هذا المسار التراكمي (من استمالة الفاطميين، إلى مقاومة العزفيين، ثم صرامة المرينيين، وأبهة الحفصيين) هو الذي شكل الضغط التاريخي والسياسي على الدولة الزيانية في المغرب الأوسط. فالتأخر الزياني في الاحتفال لم يكن جهلاً بالظاهرة، بل كان وقوفاً عند حدود الفتوى المالكية من جهة، وانتظاراً للحظة سياسية مواتية يعيد فيها بنو زيان صياغة هذا الإرث بما يخدم "التميز التلمساني" ويواجه التفوق المريني والحفصي (محمد بن سمينة،2008، ص98).

لقد اصطدمت الرغبة السلطانية في التبني المبكر للمولد بصلابة "المدرسة الفقهية التلمسانية"، فبينما كان المرينيون في فاس يفرضون الاحتفال فرضاً سياسياً، كان فقهاء تلمسان المالكية، وعلى رأسهم تلامذة مدرسة ابن مرزوق الجد ينظرون بريبة إلى هذه "البدعة المستحدثة"، هذا الانقسام بين "الحاجة السياسية للشرعية" و"التحفظ الفقهي" أدى إلى تأجيل الترسيم الرسمي، ومع ذلك، يرى بعض المؤرخين أنَّ هذا التأخير

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

خدم الدولة الزيانية، إذ سمح لها بمراقبة "النموذج المريني" و"النموذج الحفصي" لتستخلص منهما صيغة تلمسانية فريدة تدمج بين الجانب الروحي الشعبي والجانب التقني الأدبي. (صابرة خطيف،2011، ط1 ص236).

ثانيا: الاحتفالية المولدية في المغرب الأوسط: دراسة في سياقات التأسيس ودلالات الطقس الرسمي:

يعد الاحتفال بالمولد النبوي من تجليات التواصل الثقافي والروحي بين المغرب الأوسط وبلاد الحجاز، ومظهرا من مظاهر الأدوار الدينية التي أفرزتها الرحلة الحجازية من بلاد المغرب الأوسط وبغض النظر عن الخلفيات السياسية والمذهبية للسلاطين من وراء إقامة هذا العيد، فقد اقترن اجتماعيا بعادات احتفالية على الصعيد الشعبي قبل تحوله إلى عيد رسمي ابتداء من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

تشير أغلبية المصادر التاريخية التي أرخت للحدث إلى أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب الأوسط الزياني بدأ متأخراً بالمقارنة مع الجيران المرينيين في فاس أو الحفصيين في تونس، فبينما كان المرينيون قد جعلوا من المولد "بروتوكولاً سلطانياً" منذ منتصف القرن الثامن الهجري، لم يشهد المغرب الأوسط الترسيم الرسمي لهذه المناسبة إلا مع تولي السلطان أبي حمو موسى الثاني الحكم في تلمسان سنة 760هـ/1359م

ومع الترسيم الرسمي، تحول المولد في تلمسان إلى "بيعة سنوية"(صابرة خطيف، 2011، ط1 ص236) واختبار للولاء، فمن خلال قصر المشور، استطاع السلطان أبو حمو الثاني جمع النخبة من القضاة والفقهاء والأشراف، وتحويل المناسبة إلى أداة لضبط النخبة وإظهار هيبة الدولة الناشئة الخارجة من رحم الحروب الطويلة، وبذلك، غدا المولد في المغرب الأوسط في العهد الزياني فعلاً سياسياً بامتياز، يعيد صياغة الإرث النبوي بما يخدم "التميز الزياني" ويواجه الضغوط التاريخية والسياسية للقوى الإقليمية المحيطةالممثلة في المرنيين غربا و الحفصيين شرقا (عبد العزيز فيلالي،2002 ،ج1 ، ص277).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

شهد العهد الزياني تحولاً جوهرياً في طقوس الدولة بتبني السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م) للاحتفال بالمولد النبوي كعيدٍ رسميٍ حظي بعناية فاقت سائر المراسيم، وهو ما أكده التنسي بوصفه لهذا التفرد، حيث جعله من الأعياد الرسمية للدولة الزيانية وخصه بعناية فائقة دون غيرها، وفي ذلك يقول التنسي" وكان يقوم بحق ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل بها بما هو فوق سائر المراسيم"(التنسي، 1985، ص178)، و قد أوصى ابنه بانتهاج سياسته الدينية في هذا المجال قائلا" واتبع آثارنا في القيام بليلة مولد النبي ﷺ، واستعدَّ لها بما تستطيع من الإنفاق العام، واجعلها سُنّةً مؤكدةً في كل عام؛ تواسي في تلك الليلة الفقراء، وتجزي الشعراء. وإن ركبتْ فيك الغريزة الشعرية، وتحليت بالحلية الأدبية، زدتَ جمالاً إلى جمالك وكمالاً إلى كمالك؛ فانظِمِ المولديات، وجارِ حلبة السابقين في الأدبيات، تحرزْ بذلك أفضل المزيّات. فهذا يا بني دَأْبُنا في كل عام، وسُنّتنا على الاستمرار والدوام"(أبو حمو موسى الزياني ،1279هـ، ص163).

يكشف النص بوضوح عن عبقرية أبي حمو في تحويل العاطفة الدينية إلى "سنة مؤكدة" وبروتوكول رسمي. فحين يقول لابنه: "واتبع آثارنا... واجعلها سنة مؤكدة في كل عام"، فهو لا يوصي بمجرد إحياء ليلة، بل يضع "رسمًا" سلطانيًا ملزمًا لمن خلفه، لقد أدرك أبو حمو موسى الزياني أن استقرار العرش يتطلب ترسيخ تقاليد تمنح الدولة هويتها الخاصة، فكان المولد النبوي هو "العلامة الفارقة" التي ميزت الحواضر الزيانية عن غيرها من الحواضر المغربية في ذلك العصر، كما توجيه السلطان لابنه بضرورة "الإنفاق العام" و"مواساة الفقراء" في هذه الليلة، يعكس وعيًا سياسيًا عميقًا. فالمولد لم يكن احتفالًا نخبويًا داخل أسوار المشور، بل كان جسرًا يربط السلطة بالرعية، من خلال إطعام المساكين وتوزيع الصدقات، تحول المولد إلى "صمام أمان" اجتماعي، حيث يرى الفقير في كرم السلطان تجسيدًا لقيم النبوة التي يُحتفى بها، مما يضفي مشروعية أخلاقية وشعبية على الحكم الزياني، ولعل أبهى ما يكشفه النص هو الحثُّ على "مجاراة حلبة السابقين في الأدبيات"، هنا نجد أنفسنا أمام "الملك الأديب" الذي لا يرى في الحكم سيفًا وتاجًا فحسب، بل "حلية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أدبية" و"غريزة شعرية". لقد شجع هذا التوجه على ظهور "المولديات" كجنس أدبي رفيع ازدهر في تلمسان؛ حيث كان الشعراء يتنافسون في حضرة السلطان، مما جعل من البلاغة والبيان جزءًا من كاريزما السلطة وزينة الملك (محمد بن ميمون،2003، ص274).

وعلى الرغم من هذا الاحتفاء الباكر، إلا أن القارئ للمصادر اللاحقة يلحظ انحساراً في التفاصيل الوصفية الدقيقة؛ إذ لم تحمل عهود السلاطين الذين خلفوه إضافاتٍ جوهرية على المشهد الاحتفالي. ويبدو أن طقوس المولد قد بلغت في عهد أبي حمو موسى الثاني ذروة نضجها التنظيمي، فاستحالت إلى قالبٍ مرجعي ثابت، اكتفى الخلف بتمثله والحفاظ على هيئته دونما حاجةٍ إلى استحداثِ ملامحَ جديدة. ففي تلك النتف اليسيرة التي أوردها التنسي في معرض تأريخه لمراسم المولد، نلاحظ ميله الواضح نحو الإيجاز؛ إذ لم يرَ في احتفالات السلاطين اللاحقين إلا امتداداً طبيعياً لنهج السلف، وهو ما جعله يكتفي بإشاراتٍ مقتضبة تُثبت قيام الرسم الاحتفالي دون الخوض في تفاصيله التي غدت معلومةً بالضرورة، مؤكداً أن اللاحق منهم كان «ينسج في ذلك على منوال أبيه»، أو «يحتفل احتفال أسلافه الكرام»، ويسير «على رسم والده ويقتفي أثره». وهي إشارات توحي بأن طقوس المولد قد بلغت في عهد أبي حمو موسى الثاني صيغةً نموذجيةً ونهائية، اكتفى مَن جاء بعده من الملوك بالحفاظ على هيبتها واستمراريتها دون تغيير (التنسي، 1985، ص178).

ثانيا: مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في العهد الزياني:

كانت ليلة المولد النبوي عند سلاطين بني زيان مشهداً مهيباً يجمع بين هيبة الحكم وجلال الدين؛ حيث كان السلطان يشرع أبواب بلاطه لموكب من الأشراف والقضاة والفقهاء ورجالات الدولة. وقد خلد المؤرخ يحي بن خلدون تفاصيل تلك الأمسية العبقة، واصفاً مجالس الذكر والاحتفاء التي كانت تُقام في حضرة السلطان قائلا:" فأقام لها بمشور دار العليا عرسا حافلة، احتشدت لها الأمم، وحشر بها الأشراف والسوقة"

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

(يحي ابن خلدون، 1980، ج2، ص40)، وفي هذا الصدد كذلك يقول التنسي"وكان يقوم بحق ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل بما هو فوق سائر المراسيم"(التنسي،1985، ص162).

كان السلطان الزياني يتربع على عرشه في ليلة المولد كالبدر في هالة جلاله، يحيط به بهاء الملك ووقار المنصب، بينما تزدان الردهات بوجوه الأعيان وعلية القوم من أمراء وعلماء، مصفوفين في مراتبهم كعقد منظوم، فكان المجلس يغصّ بطبقات الرعية من أرباب السيوف والأقلام وصولاً إلى عامة الناس، وقد استعدوا في أبهى حلل الحرير الموشى، تسبقهم أريجُ المباخر التي تضوع بنفحات العنبر، وترشح بماء ورد نصيبين (عبد العزيز فيلالي، 2002، ج1، ص282) ، ولم تكن تلك الساعة البديعة، المعروفة بالمنجانة، بمعزل عن أجواء الاحتفال؛ إذ كانت مع انقضاء كل ساعة تعلن بصوتها الرخيم عن بيعة رمزية متجددة للخليفة، وكأنها لسان حال الزمان الذي يبارك تلك اللحظة، وقد خلد يحي بن خلدون هذه الساعة بقصيدة بين يدي السلطان أبي حمو موسى الثاني على لسان جارية المنجانة للأخبار عما انقضى من تلك الليلة ومما جاء في هذه القصيدة:

يَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَا *** وَجَمَالَ الْعَالَمِين

وَالَّذِي حَازَ الْمَعَالِي *** كُلَّهَا دُنْيَا وَدِينَا

قَدْ مَضَتْ لِلَّيْلِ خَمْسٌ *** حُسْنُهَا رَاقَ لِعُيُونَا

وَانْقَضَى النِّصْفُ فَآهٍ *** هَكَذَا تَمْضِي السُّنُونَا

وَدُمْتَ فِي عِزٍّ وَسَعْدٍ *** خَالِدَ الْمُلْكِ مَكِينَا (يحي ابن خلدون، 1980، ج2، ص219)"

وعقب مأدبةٍ سلطانية تليق بالمقام، ينتقل المشهد إلى رحاب الروحانية؛ حيث يخيم على المجلس صمتٌ مهيب يقطعه صوت المنشد المترنم بشمائل المصطفى ﷺ، وكان من سنن البلاط الزياني أن يُفتتح هذا الطقس الإنشادي برائعةٍ من نظم السلطان أبي حمو موسى الثاني نفسه، ابتهاجاً بمولد خير الأنام، ثم يفسح المجال لشعراء تلمسان وفصحائها ليتسابقوا في حلبة القريض، ناثرين درر قصائدهم التي نُظمت خصيصاً

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لهذه المناسبة الغالية، وتظل أصوات الشعراء والمنشدين تصدح في أركان القصر حتى هزيع الليل الأخير، لتُختتم الليلة بمائدة أخرى من صنوف الأطعمة الفاخرة وهو مشهدٌ نقله لنا العلامة محمد بن عبد الله التنسي بوصفٍ حيٍّ ودقيق، كونه كان شاهداً عيان على تلك الطقوس الباذخة في بلاط أبي حمو موسى الثاني":و المسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين و خاتم النبيين سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم،ثم يأتي آخر الليل بموائد كالهالات دورا ،و الرياض نورا،قد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس و تستحسنها الأعين و تلذ بسماع أساميها الآذان، و يشره مبصرها للقرب منها، و التناول و إن كان ليس بغرثان و السلطان لم يفارقه مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه و كل ذلك بمرأى منه و مسمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح"(التنسي ،1985، ص174) ، أما يحي ابن خلدون فيقول في هذا الصدد" وجيء في آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ الحافل الملامح والمشام المتعدد الخوانات مما أرحبت ساحته، وخيرت بروده وناء بالقصبة أولى القوة محملة، ثم الفواكه فالحلواء، وطعم الناس بين يدي الخلفية وشكروا الله سبحانه وتعالى ولم يبرح مكانه ، حتى صلى صلاة الصبح في الجماعة، ثم غذا داره السعيدة(يحي ابن خلدون، 1980، ج2، ص49)" .

ومن بين الشعراء الذين ألقوا الشعر في مدح النبي في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري يقول التنسي" ومما رفع إلى حضرته العلمية في بعض المواليد الشريفة قول الأديب البارع المكثر المتفنن أبي عبد الله بن يوسف الثغري أواخر القرن الثامن الهجري في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم (التنسي،1985، ص178).

سار السلطان أبو تاشفين على نهج والده مقتفياً أثره في إحياء السنن والمراسم، بل إنه استزاد في مظاهر الاحتفاء بأن استحدث احتفالاً مهيباً في ليلة السابع من المولد النبوي؛ وهو ما أكده المؤرخ التنسي حين وصف ذلك الاحتفال بأنه ضاهى في جلاله وفخامته ليلة المولد ذاتها، إن لم يزد عليها (التنسي،1985، ص197) ، وظل سلاطين بنو زيان يرعون هذا الاحتفال، وتشير المصادر التاريخية أن السلطان أبا زيان

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الثاني عبد الرحمن ابن أبي حمو الثاني (797-801هـ-1399-1402م)، كان يحتفل بهذا اليوم المبارك احتفال أسلافه إلى الصباح ترفع إليه القصائد والمدائح بهذه المناسبة الدينية عليها (التنسي،1985، ص222).

تجلت مظاهر الاحتفاء بالمولد النبوي في تلمسان عبر لوحة اجتماعية وروحية فريدة، فبينما كانت المنازل تضاء بالشموع وتتعطر بأريج العنبر وماء الزهر، كانت المساجد والزوايا تضج بترانيم المدائح، لاسيما قصيدتي "البردة" و"الهمزية" للبوصيري، ولم يقتصر الاحتفال على الجانب الروحي، بل امتد للمائدة التلمسانية التي تصدرتها "العصيدة" في الفطور تيمناً ببركة النبي ﷺ، تليها أطباق "البغرير" و"الرغايف" في أجواء من التكافل الجماعي (عبد العزيز فيلالي، 2002، ج1، ص280).

ولم تكن الحواضر العلمية بمنأى عن هذا المحفل المهيب، إذ اتخذ الاحتفال في المدارس التلمسانية صبغة تربوية واجتماعية خاصة، حيث كان الطلاب ينالون في هذه الذكرى عطايا ومنحاً مالية، يحرصون بوازع الوفاء على تقاسمها مع شيوخهم وأساتذتهم، وفي خضم هذه الأجواء، برز التوجه الإصلاحي لعلماء المدينة، كالشيخ أبو موسى عيسى بن الإمام، الذي وجه الأنظار إلى المقصد الأسمى من المولد، متمثلاً في إحياء السنن النبوية، والتقرب إلى الله بمد يد العون للضعفاء، واعتبار تعظيم هذه الليلة وسيلة لنشر قيم البر والتكافل وكان ذلك ردا على من أنكروا ذلك من فقهاء المغرب الاسلامي كالإمام الشاطبي الغرناطي، وابن الحاج الفاسي، الذين رأوا في الترسيم السلطاني والاحتفالي للمولد بدعةً محدثة، فجاءت أطروحة الشيخ أبو موسى عيسى بن الإمام التلمساني لتُقدّم قراءةً مقاصديةً مغايرة، تنقل الاحتفال من خانة "المحدثات المرفوضة" إلى فضاء "المصالح المرسلة" القائمة على التكافل، وإحياء السنن، ونشر قيم البر (سهيلة دهمش، 2023 ،ص172).

على الرغم من مظاهر الاحتفاء، فإن البيئة الفقهية في تلمسان لم تقف موقف القبول المطلق لكل العادات، فقد تفجر جدلٌ واسع حول إيقاد الشموع في ليلة المولد النبوي وذكراه السابعة. وتصدى لهذه

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الظاهرة الفقيه ابن مرزوق الحفيد الذي شنّ حملةً فقهية صارمة بوصفها بدعة لا أصل لها، واستطاع بنفوذه الروحي والعلمي كبح هذه العادة وتجميدها طيلة سنوات حياته، إلا أن رحيله شكّل نقطة تحول، حيث استعادت تلك التقاليد شعبيتها لدى التلمسانيين، وعادت للظهور بقوة وعنفوان فاقا ما كانت عليه في السابق (عبد العزيز فيلالي، 2002، ج1، ص284).

تتجلى قدسية المولد النبوي في تلمسان وحواضر المغرب الأوسط كفعلِ مقاومةٍ حضارية قبل أن تكون مجرد احتفالية دينية، ففي ظل العهد الزياني، وتحديداً في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، تزايدت الحاجة لتعزيز الهوية الإسلامية أمام زحف المد الصليبي، لذا غدا الاحتفاء بالمولد النبوي وسيلةً رسمية وشعبية لإعادة الاعتبار للرموز الإسلامية، وصناعة بديلٍ روحيٍّ يحفظ للشخصية المغاربية تميزها في وجه والحد من مضاهاة أهل الكفر في أعيادهم الذي طال دار الإسلام آنذاك." ، (عبد العزيز فيلالي، 2002، ج1، ص285).

وفي هذا السياق، بادر الإمام أبو العباس العزفي السبتي 633-557هـ/-1161-1235م) بوضع لبنةٍ فكرية من خلال كتابه الدر المنظم في مولد النبي المعظم، وهو العمل الذي أتمّه ابنه أبو القاسم محمد(633-667هـ/1235-1278م) بهدف توجيه بوصلة مسلمي المغرب والأندلس الذين استهواهم الاحتفال بأعياد النصارى، وقد أراد المؤلف من هذا المصنف أن يكون صرخةً في وجه مضاهاة أهل الكتاب في رسومهم، داعياً إلى إذكاء روح المقاومة والتصدي لمظاهر الاستتباع الحضاري الذي بات يهدد بيضة الإسلام ويستهدف خصوصية الهوية الإسلامية في مقوماتها الأصيلة. (صابرة خطيف،2011، ط1 ص231).

رابعا: المحددات الوظيفية للاحتفال بالمولد النبوي: قراءة في الأبعاد السيادية، والاجتماعية، والرمزية:

لم يكن احتفاء الدولة الزيانية بالمولد النبوي الشريف مجرد طقس عابر، بل كان استراتيجية حضارية شاملة استثمرها السلطان أبو حمو موسى الثاني ومن تلاه من السلاطين، لإعادة صياغة العلاقة بين السلطة والمجتمع والمقدس. ويمكن تفكيك هذه الأبعاد وفق القراءات التالية:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

1- البعد الجيوسياسي والارتباط بالمشرق الإسلامي: ملاحقة المركزية الروحية:

تجاوز حضور المولد النبوي في تلمسان الزيانية كونه طقساً مستورداً من المشرق الاسلامي، ليصبح "خياراً استراتيجياً" يهدف إلى تثبيت أركان الدولة وتوسيع مداها الروحي، فمن خلال هذا الانصهار في وحدة الوجدان السني، سعت تلمسان إلى تكريسِ مشروعيتها كقطب قيادي موجه للمغرب الأوسط وهو توجه مكَّنها من استمدادِ شرعيةٍ تاريخية من بلاد الحرمين ومراكز الثقل من المشرق لإسلامي، مما جعل الدولة الزيانية تتخطى عوائقها الجغرافية لتمثل صوتاً سنياً خالصاً في قلب الإقليم ، وتتجلى الدلالات العميقة لهذا الارتباط في سعي بني زيان إلى كسر العزلة الجغرافية التي فرضتها الصراعات الإقليمية، فمن خلال تبني المولد، أرسل السلطان أبو حمو موسى الثاني رسالة مشفرة لمنافسيه في فاس وتونس، مفادها أن تلمسان ليست كياناً هامشياً، بل هي قطب متصل بالمركزية الروحية للعالم الإسلامي(Brosselard, 1876, p58) ، هذا التوجه منح الدولة الزيانية "قوة ناعمة" مكنتها من الاستناد إلى "الشرعية النبوية" التاريخية بدلاً من الاكتفاء بالشرعية العسكرية القائمة على الغلبة، مما جعل من تلمسان نداً حضارياً لا يقل شأناً عن القاهرة أو مكة في تعظيم شعائر الإسلام ورعايتها (زايد عبد المرضي،1982، ص151).

علاوة على ذلك، كان المولد الزياني بمثابة "بوصلة جيوسياسية" أعادت توجيه الوعي الجمعي في المغرب الأوسط نحو المشرق، وقد لعبت "الرحلة الحجازية" دوراً محورياً كجسر للدبلوماسية العلمية، حيث كان علماء تلمسان يعودون من الحجاز محملين بوصف دقيق للاحتفالات المشرقية، ليعملوا كـ "وسطاء ثقافيين" يضمنون أن يكون الاحتفال التلمساني متوافقاً مع المعايير السنية في ذلك العصر، هذا التوطين لم يكن تقليداً باهتاً، بل كان إعادة صياغة للقيم المشرقية بما يخدم استقرار المجتمع الزياني، محولاً محبة المصطفى ﷺ إلى "جامع مشترك" ينخرط فيه عامة المجتمع (صابرة خطيف،2011، ط1 ص231).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وفي نهاية المطاف، أثبتت الدولة الزيانية أن استيراد هذا الرمز الديني وتوطينه في تلمسان كان ضرورة سيادية لحماية الشخصية العربية الإسلامية للمنطقة، لقد تحول المولد إلى "درع هوياتي" يقي المجتمع من التأثيرات الخارجية، سواء كانت ضغوطاً سياسية من الجيران أو تأثيرات ثقافية نصرانية من الأندلس، ليظل النموذج الزياني في الاحتفال شاهداً فذاً على التقاطع بين هيبة السلطة وقداسة الرمز، مؤكداً أن تلمسان كانت، بامتياز، "القلب النابض" للوجدان السني في المغرب الأوسط.

2- البعد السيادي وتكريس هيبة العرش: المولد النبوي كآلية للضبط السياسي والشرعية السلطانية:

تجلت عبقرية السلطان أبي حمو موسى الثاني في إدراكه المبكر بأن استقرار الدولة الزيانية لا يقوم على قوة السيف فحسب، بل على امتلاك "القوة الرمزية" التي تجعل من شخص السلطان محوراً للمقدس والسيادة معاً. ومن هنا، تحول المولد النبوي في تلمسان من مجرد شعيرة دينية إلى "بيعة سنوية غير مباشرة"، لقد تحولت هذه المراسم إلى منصةٍ يُعاد من خلالها تجديد بيعة العامّة والخاصة للعرش الزياني، وذلك ضمن مشهدٍ احتفاليٍّ غامرٍ يمزجُ بين قدسية المناسبة الدينية وهيبة السلطة الرسمية، مما منح الحكم شرعيةً مزدوجة استمدت قوتها من الوجدان الشعبي والتأييد الديني في آنٍ واحد (صابرة خطيف، 2011، ط1 ص233).

إن إشراف السلاطين بأنفسهم على أدق تفاصيل الاحتفال، بدءاً من اختيار المنشدين وصولاً إلى توزيع الأطعمة، لم يكن مجرد تواضع سلطاني أو رغبة في الثواب، بل كان "أداة لتقليص الفجوة النفسية" بين الحاكم والرعية، فمن خلال فتح فضاء "المشور" لمختلف الطبقات الاجتماعية، من أشراف وفقهاء وحتى العامة، استطاع السلطان أن ينسج حالة من "التماهي الوجودي" بين العرش والمقدس، مُرسخاً في وجدان العامة أن السلطة الزيانية هي الحصن الوحيد والراعي الحصري لحرمات الدين، وبذلك غدا الالتفاف حول السلطان في ليلة المولد تعبيراً علنياً عن الانتماء للهوية الجماعية، وطقساً من طقوس الوفاء للدولة في جوهرها الروحي (نور الدين الزاهي، 2011 ،ص84).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ومع ذلك، لم يكن هذا الانفتاح الشعبي يخلو من "صرامة سيادية" وحزم سياسي، فقد تحولت ليلة المولد إلى ميزان دقيق لقياس الولاء، فالسلطان الذي كان يغدق المكافآت والمنح على الحاضرين، كان هو نفسه الذي يستخدم "سلطة الحرمان" لمعاقبة المتغيبين. إن انزعاج السلطان من تخلف بعض القضاة أو الفقهاء أو الأشراف، ومنع الجوائز عنهم، يحول الحضور من "فعل اختياري" إلى "واجب سيادي"، إذ أصبح التغيب عن مجلس المولد يُفسر سياسياً بأنه نوع من المعارضة الصامتة (نور الدين الزاهي،2011 ،ص105).

وبهذا المعنى، صار المولد بمثابة "اختبار دوري للولاء" تحت غطاء ديني كثيف؛ حيث تُذوّب الخصومات السياسية في بوتقة المديح النبوي، ويُجبر المعارضون أو المترددون على الحضور لإثبات ولائهم للعرش. إن هذا الذكاء في "تسييس المقدس" سمح لبني زيان بتحقيق استقرار داخلي مذهل، حيث أصبح السلطان في نظر العامة ليس حكماً سياسياً فحسب، بل هو "خادم السنة" والمدافع عن حمى الملة، مما جعل من أي خروج عليه خروجاً عن القيم الروحية التي يمثلها هذا الاحتفال المهيب.

3–توطين القيم وتطوير "النموذج الزياني": من الاستيراد الثقافي إلى الابتكار الحضاري:

لم يتوقف طموح السلاطين الزيانيين عند حدود جلب فكرة المولد من المشرق، بل سعوا جاهدين نحو "توطين" هذه القيم وتحويلها إلى نموذج حضاري فريد يُعرف بـ "النموذج التلمساني"، هذا النموذج لم يكن مجرد تقليد باهت، بل كان عملية صياغة ذكية تدمج بين الروحانية الإسلامية، والبراعة التقنية، والهوية الاجتماعية للمغرب الأوسط(Bel,1913, p58)، ويمكن تفكيك هذا التوطين من خلال نجاح بنو زيان في نقل المولد من "فكرة وافدة" إلى "عُرف متجذر" في وجدان ساكنة المغرب الأوسط، فبينما كان المولد في بعض الحواضر يقتصر على نخب البلاط عمل النموذج الزياني على جعله متاحاً لعامة الناس، ففتحت أبواب المشور للسوقة والعامة، وامتزجت الأطعمة السلطانية الفاخرة بالأطباق الشعبية المحلية كـ "العصيدة" و"الرغايف"، هذا الدمج حول المولد من "احتفال رسمي" جاف إلى "عيد اجتماعي" ، مما جعل الفرد في تلمسان يشعر بأن المولد هو جزء من كيانه وتراثه المحلي وليس مجرد مراسم مفروضة من الأعلى(حنان محمد

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

،2015 ،ص113) ،بالإضافة إلى ذلك قيام بنو زيان إدخال "البعد التقني" في الاحتفال الروحي. فصناعة "المنجانة" بطلب من السلطان أبي حمو الثاني لم تكن مجرد أداة لضبط الوقت، بل كانت محاولة لـ "عصرنة" الطقس الديني، لقد أراد الزيانيون أن يقولوا للعالم الإسلامي إنَّ تلمسان لا تحتفل بالكلمات والأشعار فحسب، بل تحتفل بالعلم والابتكار، هذا "التزاوج بين المقدس والتقنية" أعطى للمولد الزياني هيبة علمية جعلت المؤرخين يصفونه بأنه الاحتفال الأرقى والأكثر تطوراً في الغرب الإسلامي، متفوقاً بذلك على النماذج المرينية والحفصية التي ظلت حبيسة الأنماط التقليدية(حنان محمد ،2015 ،ص118) ، وكذلك طوّر الزيانيون نموذجاً خاصاً في الأدب المولدِي، فلم تعد القصائد مجرد مدائح نبوية عامة، بل أصبحت "وثائق تاريخية وأدبية" تُكتب خصيصاً لليلة المولد في تلمسان،كان السلطان نفسه يشارك بنظم هذه القصائد، مما خلق "مدرسة أدبية تلمسانية" في المديح النبوي تتميز بالرصانة العلمية والجزالة اللغوية، هذا التوطين الثقافي جعل من المولد "موسماً للعقل" قبل أن يكون موسماً للوجدان، حيث كانت تُناقش فيه قضايا العلم والدين واللغة، مما حوّل تلمسان إلى "منارة علمية" تشع في ليلة المولد على سائر حواضر المغرب الاسلامي.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة التي تتبعت مسارات "المقدس والسيادة" في الدولة الزيانية، يمكننا أن نخلص إلى جملة من النتائج الجوهرية التي شكلت خصوصية الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب الأوسط:

– إن الاحتفال بالمولد النبوي في تلمسان لم يكن مجرد استيرادٍ لطقسٍ مشرقي أو محاكاة لنموذج أندلسي، بل كان "مشروعاً هوياتياً" متكاملاً، فقد استطاع السلاطين الزيانيون، لاسيما أبي حمو موسى الثاني، تحويل هذه الذكرى من مناسبة دينية صرفه إلى أداة لترسيخ الشرعية السياسية وصناعة التميز الحضاري تجاه القوى الإقليمية المنافسة (المرينيين والحفصيين).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

– أثبت البحث أن "التأخر الزياني" في ترسيم المولد لم يكن عجزاً، بل كان "انتظاراً استراتيجياً" فرضته صرامة المدرسة الفقهية المالكية بتلمسان، هذا المخاض بين "التحفظ الفقهي" و"الرغبة السلطانية"، أنتج في النهاية نموذجاً احتفالياً عقلانياً، يزاوج بين جلال الدين (الموالديات والدروس) وبين إبهار الدنيا (المنجانة وأبهة المشور).

– تجلى البعد السيادي في تحويل ليلة المولد إلى "مهرجان للولاء"، حيث اندمجت فيها فئات المجتمع من أشراف وفقهاء وعامة تحت سقف "قصر المشور"، وبذلك، نجحت الدولة الزيانية في استخدام "القوة الناعمة" للمقدس لتذويب الفوارق الطبقية والقبلية، وصهر المجتمع في بوتقة وطنية واحدة تلتف حول العرش الزياني.

– مثّل المولد النبوي في المغرب الأوسط "خط دفاع ثقافي"؛ إذ جاء في سياق تاريخي حساس اتسم بتصاعد المد الصليبي والاستلاب الحضاري. فكان تعظيم ميلاد المصطفى ﷺ رداً حاسماً يهدف إلى تحصين الذات المسلمة من التقليد والتبعية للأعياد النصرانية، مما أعاد الاعتبار لرموز الأمة وهويتها الأصيلة.

–ختاماً، إن الإرث الذي خلفه الزيانيون في ليلة المولد لا يزال يلقي بظلاله على الذاكرة الجماعية للجزائر المعاصرة، حيث تظل تلمسان شاهدة بعمرانها ومنجانتها وتراثها الأدبي على عصر ذهبي امتزجت فيه العبقرية السياسية بالروحانية العميقة، ليبقى المولد النبوي علامة مسجلة تعكس شموخ المغرب الأوسط في تاريخ

المراجع والمصادر:

1- أبو حمو موسى الزياني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن(1279هـ) واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدار التونسية، تونس.

2–التنسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (1985)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق تحقيق محمود بوعياد، المكتبة الوطنية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

3- حسن السندوبي (1948) تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الاسلام الاول الى عصر فاروق الاول، مطبعة الاستقامة القاهرة، مصر.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

4- حنان محمد علي سويد (2015) الإحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب الأوسط في العصر الوسيط، المجلة العربية للعلوم الاجتماعية، العدد السابع، ج 2 جمهورية مصر العربية.

محمد بن سمينة (2008)، الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب الأوسط في عهد بني زيان (تلمسان) – المظاهر والدلالات. مجلة "عصور"العدد 13-14.

5- نور الدين الزاهي (2011) المقدس والمجتمع، مطبعة افريقيا الشرق، المغرب 2011.

6- زايد عبد المرضي محمد عطورة (1982) دولة بني زيان، رسالة ماجستير كلية الاداب، جامعة القاهرة.

7- -صابرة خطيف (2011)، فقهاء السلطة والسلطة الزيانية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر.

8- محمد بن ميمون (1981) التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.

9- نور الدين الزاهي (2011) المقدس والمجتمع، مطبعة افريقيا الشرق، المملكة المغربية.

10-يحي ابن خلدون (1980) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، نشر وتحقيق الفريد بال، مطبعة غرناطة الجزائر.

Brosselard, Charles (1876). Les Inscriptions arabes de Tlemcen. Paris: Imprimerie Nationale

Bel, Alfred (1913). Histoire des Beni 'Abd-el-Wâd, rois de Tlemcen. Alger: Pierre Fontana.